المتنبي

في بلاط سيف الدولة

لعل أبرز ما في حياة أبي الطيب ، هي السنوات التسع التي قضاها في حلب ، في عاصمة بني حمدان ، في بلاط سيف الدولة . وما كانت حياته من قبل ذلك ، ومن بعدها إلا ترداداً لها أو رجع صدى . ففي هذا الحمى غرّد المتنبي أفخر قريضه ، وغنى أجود قوله ، وفي هذا البلاط تجلت نبوّته الشعرية ، وفي هذا البلد العامر من سورية فاضت موهبته .

ما يُذكر المتنبي إلا ليذكر معه سيف الدولة وكافور ، وما يذكر العبد إلا ليردد فيه قول المتنبي :

لا تشترِ العبدَ إلا والعصا معه ... ان العبيدَ لأنجاسٌ مناكيدُ

ما كنت أحسبني أحيا الى زمنٍ ... يسيئني فيه عبدٌ ، وهو محمودُ

من عَلَّمَ الأسودَ المخصيَّ مكرُمةً ... أقومه البيضُ ، أم آباؤه الصيدُ ؟!

أم أذنَه في يدِ النخاس دامية ؟ ... أم قدرهُ وهو بالفلسين مردودُ ؟!

لكن سيف الدولة يُذكر لأن مديح المتنبي قد ملأ الاسماع والأبصار ، وشعره فيه المتنبي ذاته ! وشتّان ما بين الهجاء والمديح ، وشتان بين قبح الصيت وحسنه حتى في الذكرى !

ان سيف الدولة مرادف للمتنبي ، كان شاعرنا قد تنبأ في قوله عن الصلة الدائمة بين اسميهما ، حين فخر بنفسه ، ومدح أمير بني حمدان قائلاً :

خليليَّ ! انى لا أرى غيرَ شاعرٍ فكم منهم الدعوى ومنى القصائدُ ؟
فلا تعجبا ، ان السيوف كثيرةٌ ولكن سيف الدولة اليوم واحدُ !

هذا هو أبو الحسن على بن عبدالله بن حمدان العدوى الذى تولى الملك على حلب ومقاطعتها حتى انطاكية ثلاثة وعشرين عاماً ، وقف فيها ببابه من الشعراء ، ما لم يجتمع بباب أحد غيره من الملوك ، بعد الخلفاء ، كالسرى الرفاء والببغاء والنامى والوأواء الدمشقى وسواهم لكن صيته لديهم خفت معهم . ولم يثبت حتى الآن إلا لأن أحد شعراء الدهور وقف زمناً لديه ، وها نحن نرى اسمه خلد على المدى وسيرنّ فى الآفاق كلما رنّ اسم المتنبي رغم ما وقع بينهما من جفوة وفرقة ، وصار من وحشة وبعاد .

انها لصدفة عجيبة سعيدة أن يأتى سيف الدولة الى انطاكية ، قصبة البلدان السورية الشمالية ليزور قريبه أبا الشمائر الحمدانى ، فيقدم هذا اليه أبا الطيب ويكشف له عن نبوغه فى الشعر ، ويثنى عليه فيضمه الأمير اليه على شروط يشترطها الشاعر : أن لا ينشد الشعر إلا جالساً ، ولا يقبّل الأرض إن حضر بين يديه ، وفى هذه الشروط تتجلى كبرياء المتنبي بينة ظاهرة ، كيف يأبى الخضوع لما هو عرف متبع بين الشعراء فى حضرة الملوك ، وكيف يعدّ ذاته والملوك سواسية فى القدر والمكانة ، لولا الدهر المشاكس !

أكرم سيف الدولة مثواه بادىء ذى بدء ، وكانت هداياه لشاعره كثيرة ، وعطاياه عظيمة أسالت لعاب باقى الشعراء فى البلاط ، وأثارت حفائظهم وأوقدت نيران الغيظ على هذا الشاعر الذى جاء يخبت صيتهم وينال منهم لدى سيف الدولة ويحظى بالهدايا الفاخرة الوفيرة ، وتغدق عليه النعم العظيمة بينما هو يأبى أن يسير على سنّة الشعراء ، أو يتقيد بعاداتهم ويأتم بأحوالهم ، أو يعدّهم وإياه على قدم سواء .

ثاروا وماجوا فى أنفسهم ، وعوّلوا على أن يدخلوا فى روع سيف الدولة شيئاً بل أشياء عن شاعره الممتاز ، وأخذ جانبهم أبو فراس الحمدانى ، ابن عم الامير ، وكان ما لا بدّ أن يكون فى مثل هذه الحالات ، وانتهى الأمر بأن أصغى سيف الدولة بعض الشىء الى هذه الأقاويل التى تحف بمجلسه عن المتنبي فكان الحال كما قال فولتير أكبر كذوب فى العالم : « أكذبوا ! ! كذبوا ، فلا بد أن يعلق فى العقول شىء من كذبكم ! » فكان تارة يجافيه ويمالئهم عليه ، وتارة يحنّ الى

مديحه ، ويتوق اليه فيصله ويكرمه . وكان المتنبي من جهته أيضاً يتجاهله طوراً فيحضر مجلسه ولا عدحه ، وطوراً يشيد بمآثره فى استعطاف ممزوج بكبرياء ، وهكذا دواليك من الطرفين . وهذا ماحمل يوماً ما أبا فراس على القول لا بن عمه : « ان هذا المتشدّق كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرّق مئتي دينار على عشرين شاعراً ، يأتون بما هو خير من شعره » . وعملت هذه النميمة الذميمة فى نفس سيف الدولة أى عمل فأضمر ما أضمر ، ووصل الخبر للمتنبي فاستعدّ للامر . فكانت هذه الحادثة التى تدل أعظم دلالة عما كان يجرى فى مجلس سيف الدولة من ايقاع بالمتنبي ، يقوم بحبكه أولئك الشعراء الذين أكل الحسد قلوبهم ، وملأت الغيرة قلوبهم وهى تعلّل لنا لماذا انتهت تلك الرابطة القوية بقطيعة مرّة ، رحل فيها المتنبي عن حلب رحيلاً أبدياً ، فانه لما دخل سيف الدولة بعد تلك الوقيعة من أبى فراس ، وأنشده أبياتاً لم يأبه له هذا ولوى برأسه عنه ، وكان مَن حوله يغتابونه أمامه سكت المتنبى وأسرّها فى نفسه ، وانقطع عن المجلس حتى نظم قصيدته الميمية الشهيرة ، ثم جاء وألقاها ، وقد بدأ بالتظلم والاستعطاف والادلال :

واحرّ قلباه ممن قلبه شبمُ ! ومَن بجسمي وحالى عنده سقمُ !
مالى أكتمُ حبّاً قد برى جسدى وتدّعى حبّ سيف الدولة الأممُ
إن كان يجمعنا حُبٌّ لغُرّتِه فليت أنا بقدر الحبّ نقتسمُ
قد زرته ، وسيوف الهند مغمدة وقد نظرتُ اليه والسيوفُ دمُ

وهنا كاد بعضهم يوقعون به فى حضرة الأمير ويقتلونه ، لفرط ادلاله وسكوت سيف الدولة ، واستمر هو حتى انتهى الى قوله :

يا أعدل الناس إلا فى معاملتى فيك الخصام ، وأنت الخصم والحكم

فقال أبو فراس : قد مسخت قول دعبل :

ولست أرجو انتصافاً منك ما ذرفت عينى دموعاً ، وأنت الخصم والحكم

فقال المتنبى :

أعيذها نظرات منك صادقة أن تحسب الشحم فيمن شحمه وَرَمُ

فأدرك أبو فراس انما هو يعنيه بذلك ، فثار أن يكون هُزأة ، وهو قريب

سيف الدولة ، وأن يوكزه المتنبي ، فقال : « من أنت يا دعيّ كندة ، حتى تأخذ أعراض الامير فى مجلسه ؟ » وظل الامر على هذا المنوال ، يقول أبوالطيب بيتاً ، فيقاطعه أبو فراس ، حتى إذا انتهى الى قوله :

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره اذا استوت عنده الأنوار والظُّلَمُ ؟

قال أبو فراس : « هذا سرقته من قول معقل العجلى :

اذا لم أميز بين نورٍ وظلمةٍ بعينيَّ ، فالعينان زورٌ وباطلُ !

ومثله قول محمد بن احمد بن أبي مرّة المكى :

اذا المرء لم يدرك بعينيه ما يرى فما الفرق بين العمى والبصراء ؟ »

وضجر سيف الدولة ، فقذفه بالدواة ، فاستطرد المتنبي ، وثار فى نفسه لهذه الاهانة وأخذته أنفة الكبرياء ، فعوّل أن يطلق آخر سهم فى كنانته ، فقال :

إن كان سرّكم ما قال حاسدُنا فما لجرحٍ إذا أرضاكمُ ألمُ !

فكان هذا البيت البلسم الشافى ، واذا بسيف الدولة يرضى عليه ، ويقرّبه اليه ويقبّل رأسه ، ويصله بألف دينار ، يردفها بألف أخرى ، ويفقأ حصرماً فى أعين الوشاة الحسّاد !

هذا مثال مما كان يحدث فى مجلس سيف الدولة ، ومثال ناطق بمايفعل الحسد ، ولا ريب أن توالى هذه الحوادث وتوالى الجفوة بينه وبين المتنبي عملت فى قلب أمير بنى حمدان كثيراً ، ثم ربما كان هذا قد ملّ من الشاعر أثر تلك الوشايات ، بعد ما قضى لبانته منه ، فأراد أن يذل كبرياءه ، ويخضد من عنفوانه ، لذلك نراه يملىء الشعراء عليه ، ويطرق عنه ، مع أن ما قاله المتنبي فيه لم يقله شاعر فى أمير ، فقصائده فيه أروع ما نظمه فى سائر حياته ، ومدائحه فيه يتحدث بها الركبان ، ويتناشد بها الناس ، بل ان مراثيه لأقرباء الأمير ، من أمه ، وابنه واخته ، ملأت الاسماع حال قولها . ألم يقل ابن العميد : « إنه يغيظنى أمر هذا المتنبي ، واجتهادى فى أن أخمد ذكره ، فقد ورد علىّ نيف وستون كتاباً فى التعزية ، وما منها إلا ما صدّر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبرٌ فزعت فيه بآمالى الى الكذب

حتى اذا لم يدعْ لى صِدقهُ أملاً شرقتُ بالدمعِ حتى كاد يشرق بى

فكيف السبيل الى اخماد ذكره ؟ » .

وما هذان البيتان إلا من قصيدة رثى بها المتنبي أخت سيف الدولة ، قبل قول ابن العميد هذا بسنة من الزمن ، فطافت فى هذه المدّة أنحاء الجزيرة والعراق وفارس ، وانتهت الى أرّجان ، وحيث يقيم هذا الوزير ! ولو عاد سيف الدولة الى الحياة ، ورأى ما تركه له المتنبي من ذكرى ، لكان يندم على ما فعله أى ندم ، يحمله الى الاسراع الى الأكفان من جديد ليدارى عيبه ، ولايفصح عن عظم خجله ومعرّته !

وكان سكوت سيف الدولة عن انصافه بعد الذى حدث فى مجلسه بين أبى الطيب وابن خالويه النحوى ، من المهاترة والشجار ، فوثوب النحوى على الشاعر ، ولطمه بمفتاح فى يده شجّ رأسه ، ما أدى بهذا أن ينفر نفوراً كلياً من رجل أشاد هو به كل الاشادة فى أشعاره ، وترنم بها الناس فى مجالسهم فخذله ، فتركه وذهب الى دمشق ، ومنها قصد الى مصر ، وأننا نراه فى مصر ، كيف يعرّض بسيف الدولة وكيف يذكره بما كان منه من عدم الدفاع عنه أو الانتصار له ، وذلك فى القصيدة التى قالها عن اشاعة موته ، ونعيه فى مجلس سيف الدولة :

رأيتكم لا يصون العرض جاركمُ ولا يدرّ على مرعاكمُ اللبنُ
جزاء كل قريبٍ منكم ، مللٌ ! وحظّ كل محبّ منكم ضَغَنُ !
وتغضبون على مَن نال رفدكم حتى يعاقبه التنغيصُ والمنُّ !

وكانت هذه الأقوال القاسية خليقة بسيف الدولة بعد الفعل الشنيع الذى فعله ، ولكن المتنبي وإن قال ما قاله هنا وغير هنا عن ألم وحسرة وغيظ وتشفّ فقد كان دائماً يذكر سيف الدولة ، وبلاط سيف الدولة ، وليالى حلب ، وعيشه الرغد فيها ، ولولا فراقه لها لما صرمت حباله بهذه الكيفية المفجعة ، فيقتل وهو فى طريقه الى بغداد عائداً من لدن عضد الدولة فى شيراز ، ولكن :

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مُرادِها الأجسامُ !

بركات — السودان : **ميشيل سليم كمير**

نوادر أبي الطيب

للمتنبي أخبار متشتتة في تضاعيف الأسفار أشير الى بعضها في هذه المقالة :

رحل المتنبي الى العراق بعد خدمته لسيف الدولة بن حمدان في حلب فأقام في البرية وسئل عن ذلك فقال : «ان بني حمدان كدروا خاطري فجئت أربحه».

وقيل له يوماً: «على مَن تنبأت ؟» قال: «على السفلة» ، قيل : «ان لكل نبي معجزة فما معجزتك ؟» قال قولي :

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوّاً له ما من صداقته بُدُّ

وجرت مناقشة بينه وبين أبي علي الحاتمي فقال المتنبي من كلام طويل للحاتمي : «لقد أكثرتَ من ذكر أبي تمام لا قدس الله روحه» فقال الحاتمي : «لا قدس الله روح الآخذ منه والطاعن عليه» .

وسأل أحدهم المتنبي عن قوله : «باد هواك صبرت أم لم تصبرا» كيف أثبت الألف في (تصبرا) مع وجود الجازم فقال المتنبي: «لو كان أبو الفتح بن جني ههنا لأجابك» وكان يثق به كثيراً حتى اذا سئل عن معنى من أشعاره يقول : «اذهبوا الى ابن جني فانه يقول لكم ما أردته وما لم أرده» .

وكان المتنبي موصوفاً بالبخل حتى انه لما أجيز على قصيدة بعشرة آلاف درهم وزنها ووضعها في كيس وختمه ورفعه الى صندوق في خزانة ثم رجع الى مجلسه فوجد بين الحصير قطعة تكون مقدار ربع درهم فعالجها بأظافره وهو ينشد قول ابن الحطيم:

تبدت لنا كالشمس تحت غمامة بدا حاجب منها وضنت بحاجبِ

الى أن أخذها فأعاد الكيس ووضعها فيه بحضرة جماعة يعرف انهم يذمّونه .

وكان أبو العباس النامي يقول : «كان قد بقي من الشعر زاوية دخلها المتنبي وكنت أشتهي ان أكون قد سبقته الى معنيين قالهما ماسبق اليهما (أحدهما) قوله:

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبالِ

فصرتُ اذا أصابتني سهام تكسّرت النصال على النصالِ

والآخر قوله :

فى جحفل ستر العيون غباره فكأنما يبصرن بالآذان

وقصد السرىّ الرفاء سيف الدولة ممدوح المتنبي فأنشده بديهاً :

انى رأيتك جالساً فى مجلس قعد الملوك به لديك وقاموا

فكأنك الدهر المحيط لدبهم وكأنهم من حولك الأيام

وبعد ثلاثة أيام جاء المتنبي مجلس سيف الدولة وأنشده قصيدته التى قال فى مطلعها :

أيدرى الربع أىّ دم أراقا وأىّ قلوب هذا الركب شاقا ؟

حتى بلغ الى قوله :

وخصر تثبت الأبصار فيه كأن عليه من حدق نطاقا

فقال السرى : «هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون» ثم حمّ حسداً وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة أيام .

وكان لابن جنىّ هوى فى أبى الطيب وكان كثير الاعجاب بشعره وكان يسوءه اطناب أبى على الفارسى فى الطعن عليه . واتفق أن قال أبو على يوماً : «اذكروا لنا بيتاً من الشعر نبحث فيه» فابتدر ابن جنى وأنشد :

حلتِ دون المزار فاليوم لو زار تِ لحالَ النحولُ دون العناقِ

فاستحسنه أبو علىّ واستعاده — وقال : «لمن هذا البيت فانه غريب المعنى ؟» فقال ابن جنى هو الذى يقول :

أزورهم وسوادُ الليل يشفع بى وانثنى وبياضُ الصبح يغرى بى

فقال : « والله ! وهذا أحسن ، فلمن هو ؟» قال : «للذى قال :

أمضى ارادته فسوف له قد واستقرب الأقصى فثم له هنا !

فكثر اعجاب أبى على واستغرب معناه وقال لمن هذا ؟ فقال الذى قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى مصر كوضع السيف فى موضع الندى

فقال : «وهذا والله أحسن ، ولقد أطلت يا أبا الفتح فمن هذا القائل ؟» قال :

«هو الذى لا يزال الشيخ يستثقله ويستقبح زيه وفعله وما علينا من القشور إذا استقام اللباب» .

— قال أبو علىّ: «أظنك تعنى المتنبى ؟» قال نعم : «فقال والله لقد حبّبته الىّ» .

ونهض ودخل على عضد الدولة فأطال فى الثناء على أبى الطيب ، ولما اجتاز به استنزله اليه واستنشده وكتب عنه أبياتاً من شعره .

ومن محاسن منظومه القصيدة التى نظمها لما نعى فى مجلس سيف الدولة بحلب وقد قال منها :

يا مَن نُعيتُ على بُعدٍ بمجلسه ... كل بما زعم الناعون مرتهنُ

كم قد قتلت وكم قد مت عندكم ... ثم انتفضت فزال القبر والكفنُ

قد كان شاهد دفنى قبل قولهم ... جماعة ثم ماتوا قبل من دفنوا

ما كل ما يتمنى المرء يدركه ... تجرى الرياح بما لا تشتهى السفنُ

وقال فى وصف القلم من قصيدة :

يتكسب القصب الضعيف بكفه ... شرفاً على صمّ الرماح ومفخرا

ويبين فى ما مسّ منه بنانه ... تيه المدل فلو مشى لتبخترا

وقوله فى وصف عوّاد من قصيدة :

أديب اذا ما جسّ أوتارَ مزهرٍ ... بلا كل سمع عن سواها بعائقِ

يحدث عما بين عاد وبينه ... وصدغاه فى خدى غلامٍ مراهقِ

وما الحسن فى وجه الفتى شرفاً له ... اذا لم يكن فى فعله والخلائقِ

ومن أقواله فى سيف الدولة من قصيدة :

أرى كل ذى ملك اليك مصيره ... كأنك بحرٌ والملوك جداولُ

اذا مطرت منهم ومنك سحائب ... فوابلهم طلٌّ وطلك وابلُ

كريم متى استوهبت ما أنت راكب ... وقد لفحت حربٌ فانك نازلُ

أذا الجود أعط الناس ما أنت مالك ... ولا تعطين الناس ما أنا قائلُ

وقوله من غيرها :

فدتك ملوك لم تسم مواضيا ... فانك ماضى الشفرتين صقيلُ

اذا كان بعض الناس سيفاً لدولة فني الناس بوقات لها وطبولُ

ومن حِكمه قوله :

سوى وجع الحساد داوِ فانه اذا حلَّ فى قلبٍ فليس يحولُ
ولا تطمعن من حاسد فى مودة وان كنت تبديها له وتنيلُ

ومن قوله فى الفخر :

وعندى لك الشُّرَّدُ السائراتُ لا يختصصن من الأرض دارا
قوافٍ اذا سِرن عن مقولى وثبن الجبال وخضن البحارا
ولى فيك ما لم يقل قائل وما لم يسر قمر حيث سارا

ومن حربياته قوله :

ولربما أطر القناة بفارس وثنى فقوَّمها بآخر منهم

ومن تشابيهه قوله فى بستان المنية بمصر لما أوقع السيل جدرانه :

شق النبات عن البستان ريِّقه محيِّياً جاره الميدان بالشجرِ
كأنما مطرت فيه صوالجة تطرح السدر فيه موضع الأكرِ

ومن قوله فى مرثية أخت سيف الدولة وكانت قد ماتت له شقيقة قبلها وهى الصغرى فعاد الموت وأخذ الكبرى :

فليت طالعة الشمسين غائبة وليت غائبة الشمسين لم تغبِ
وليت عين التى آب النهار بها فداء عين التى زالت ولم تؤبِ
قد كان قاسمك الشخصين دهرهما وعاش درهما المفدى بالذهبِ
وعاد فى طلب المتروك تاركه إنا لنغفل والأيام فى الطلبِ

ومن الحماسة قوله :

تبكى على الانصل المغمود اذا انذرها انه يجردها
لعلمها انها تصير دماً وانه فى الرقاب يغمدها
أطلقها فالعدو من جزع يذمها والصديق يحمدها

وأمثال هذه الروائع لاتحصى فنجتزىء بهذه الآن ؟

عيسى اسكندر المعلوف